موقع المدرسة المدمرة وانحنيت كما انحنوا على الأنقاض، والتقطت بعض أوراق من كتب الأطفال ودفاترهم، أوراق ممزقة اختلطت فيها الكلمات بدماء جافة تحول أحمرها إلى بني مسودّ. لم أعرف إن كانت الورقة التي حملتها معي إلى بيتي في القاهرة عليها دم طفل من الأطفال الثمانية والأربعين الذين قتلتهم القديفة أم دم طفل من الأطفال الثلاثين الذين زرتهم في مستشفى الحسينية المركزي. زرت موقعا آخر قرب المدرسة، ورأيت تجويفا هائلا في الأرض خلّفه صاروخ. لم أعد أذكر عمق التجويف ولا محيطه، أذكر أنني حدقت في الهوة وبقيت محدقا حتى نادوني فسارعت إلى الحافلة التي نقلتنا إلى المستشفى. قال أحد الأطباء إن معظم الصغار أصيبوا في رءوسهم وأجريت لهم عمليات «تربنة». أذكر الرءوس الملفوفة بالشاش الأبيض، وأذكر عيون الأطفال المتطلعة إلينا. أذكر أنهم كانوا صامتين، صامتين بشكل غريب، يتطلعون في صمت. أذكر طفلا لم يكن مصابا في رأسه بل في ساقيه. قلت له مداعبا: «بكره تقوم بالسلامة وتبقى زي الغزال، واللا زي القرد؟» تطلع الولد إليّ، لم يقل شيئا، لماذا أعدت كلامي، هل تصورت أنه لم يسمع؟! سمع، ولكنه كان فاقدا للصبر، يتألم، قال: «اللي تشوفه!» والتفت إلى أبيه قائلا: «يابا حطلي حاجة تحتيا، يابا خلّي عمي يشيلني كده، يرفعني، وحط لي حاجة تحت ضهري». هل أقوم بدور عمه أم أنتظر أن يأتي العم فيلبي للولد طلبه؟ وقفت مرتبكا، وبقيت مرتبكا طوال اليوم، في الطريق إلى القاهرة، وفي الليل، وفي الأيام التالية، لم أدر أين أذهب بيديّ، وبساقيّ وبجذعي المعلق بينهما. لا أعرف لماذا تبدو الرقبةَ مسندا غريبا بلا معنى يرفع الرأس ويبقيها معلقة طوال اليوم بهذا الشكل المرهق. لماذا كنت غاضبا من البنات؟ هل لم أطق البنات لأنني لم أعد أطيق نفسي؟ هل بدت لي حياتي إثما أم أرتد إلى عجزي عن إيذاء من أذاني وصار رغبة في إيذاء نفسي وبناتي وشهرزاد؟ كنت في الثالثة والثلاثين، ولم أفد أحدا رغم تاج الشوك، وكأس الخل والثقوب الدامية، ولكني واصلت الحياة، عشت، أقصد استيقظت في الصباح وقلت